مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

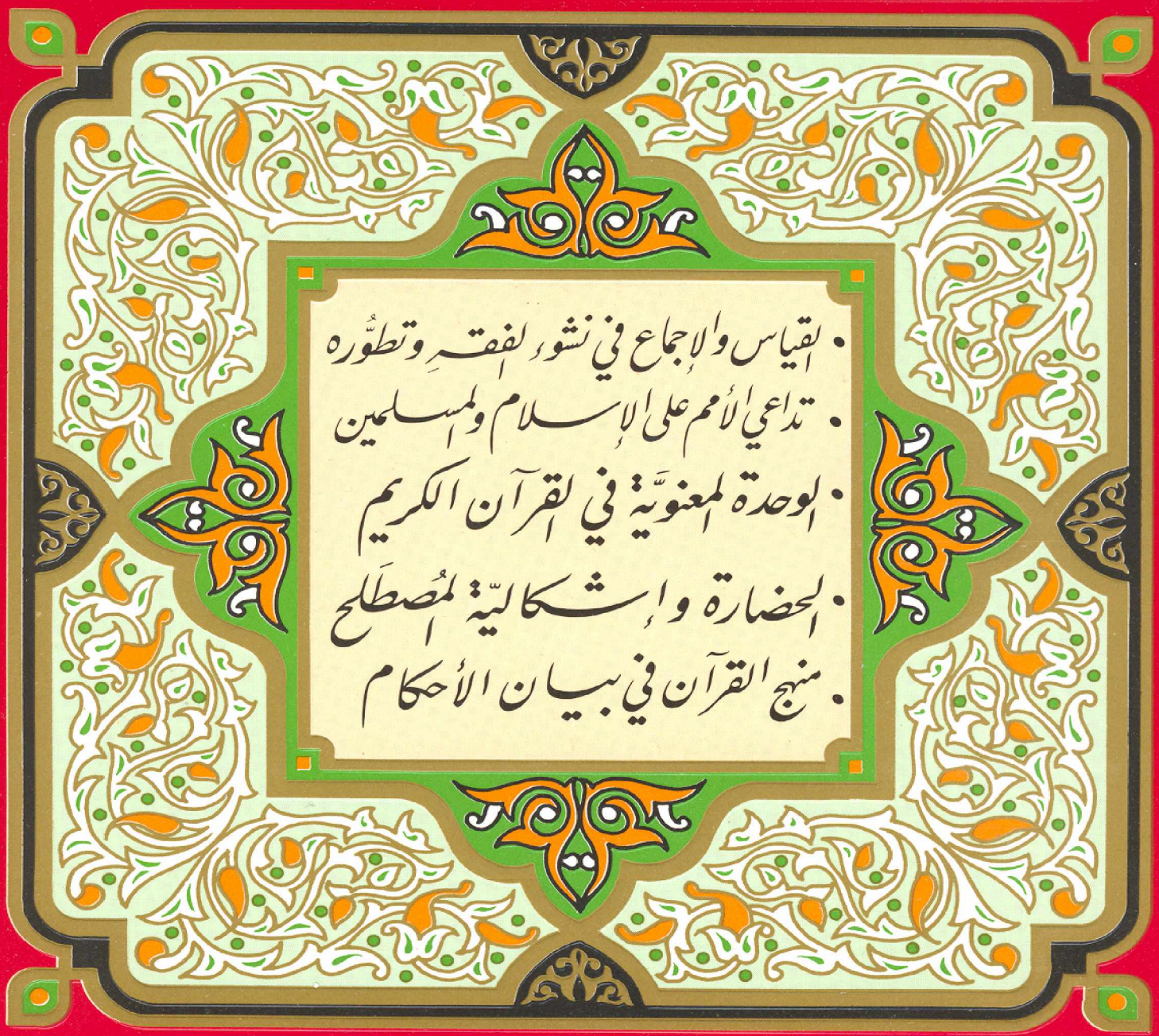

الهجاء عند زياد الأعجم

أ. علي عبد الله أمريمي
كلية الآداب - سبها

زياد بن سليمان الأعجم أحد بني عامر بن الحارث من قبيلة عبد القيس بن أفصى[1] الربعية، ولقب بالأعجم للكنة في لسانه، وربما كان السبب في هذه اللكنة مخالطته الأعاجم، فقد كان ينزل إصطخر وسكن خراسان، وفوق هذا كان مولده ومنشؤه بأصبهان في فارس[2]، وبالتالي اكتسب هذه اللكنة.

وكان مولده كما أشرنا بأصبهان ولا نعرف شيئاً عن السنة التي ولد فيها

(1) المؤتلف والمختلف ـ للآمدي «الحسن بن بشر. ت. 370هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط 2 ـ 1982 ـ ص 131.

(2) الأغاني ـ للأصبهاني «أبو الفرج علي بن الحسن 284 ـ 356هـ» ـ نشر دار إحياء التراث ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ مؤسسة جمال للطباعة والنشر ـ بيروت ـ جـ15 ص380.

زياد، ولكن من المرجح أن يكون مولده قبل الهجرة النبوية أو بعدها بقليل، فقد شارك في فتح إصطخر حين فتحها عثمان بن أبي العاص في خلافة عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة[3]، ولكي يشارك في هذا الفتح لا بد أن يكون قادراً على تحمل مصاعب القتال، وفي رأينا أن زياداً كان شاباً عندما شارك في فتح إصطخر، وقد شارك في الفتوح الإسلامية لفارس، وسكن خراسان إلى أن توفي بها سنة مئة للهجرة في أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز[4].

ولم تذكر المصادر شيئاً عن أسرة زياد سوى إشارة إلى وجود عقب له[5]، أما قبيلته عبد القيس فانتشرت بطونها فيما قبل الإسلام على ساحل الخليج العربي والعراق، وكانت تخضع في ولائها لبني المنذر في الحيرة، وهي من القبائل التي سبقت إلى إعلان إسلامها، كما سكنت معظم بطونها البصرة والكوفة بعد الإسلام، ولها دور كبير في الفتوح الإسلامية، وأقام بعض من بطونها في خراسان بعد فتحها، وكان لها دور في العصبية القبلية التي ظهرت منذ مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وزياد الأعجم أحد الشعراء الذين عاشوا عصر الخلافة الراشدة، وفترة من حكم بني أمية، فقد توفي، كما ذكرنا، في خلافة عمر بن عبد العزيز، عدّه ابن سلاّم في الطبقة السابعة من الإسلاميين[6]، وخص آل المهلب بن أبي صفرة بمدائح كثيرة، فقد كان مقرباً منهم أثناء إقامته بخراسان، وله مرثيّة جميلة الألفاظ سهلتها جيدة الصياغة، رثى بها المغيرة بن المهلّب، وهي مرثيّة مشهورة يستشهد بها كثيراً، وتعد أطول قصائده، فقد بلغت سبعة وخمسين بيتاً[7]، وله

---

(3) تاريخ الطبري «تاريخ الأمم والملوك» ـ محمد بن جرير الطبري ـ مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ط1 1985 ـ مج2 ـ جـ4 ـ ص398، وتاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان ـ تر. د. عبد الحليم النجار ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط4 ـ جـ1 ـ ص231.

(4) الأغاني ـ جـ15 ـ ص380، وبركلمان ـ جـ1 ص231.

(5) الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة «عبد الله بن مسلم. ت 232هـ» ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ط4 ـ 1980 ـ جـ1 ـ ص343.

(6) طبقات الشعراء ـ للجمحي «محمد بن سلام. ت232 هـ ـ «دار الكتب العلمية ـ ط4 ـ 1982 ـ ص192.

(7) الأمالي ـ لليزيدي «أبو عبد الله محمد بن العباس. ت. 310هـ» ـ تحق. الحبيب بن عبد الله العلوي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ص1 وما بعدها.

قطع شعرية أخرى في المدح والهجاء والوصف والغزل، وهي في مجملها جميلة سهلة الألفاظ بعيدة عن الصعوبة والتعقيد.

وعندما ننظر في شعر الهجاء عند زياد الأعجم نجده يسير في اتجاهين: اتجاه نحو الهجاء القبلي والاتجاه الآخر نحو الهجاء الفردي:

والهجاء القبلي فيما قبل الإسلام كان يقوم بدافع العصبية القبلية، فالشاعر يتعصب لقبيلته ويدافع عنها، يهجو من يتعرض لها ويرمي القبيلة المهجوة بأقبح النعوت، وعندما جاء الإسلام دعا إلى نبذ هذه العصبية وحاربها، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عادت العصبية القبلية إلى الظهور بعد وفاة الرسول ﷺ وحدوث حروب الردة، واستطاع أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه القضاء على هذه الفتنة، وقد جرد الشعراء أنفسهم خلال هذه الحرب لتحريض قبائلهم على الردة، وكان بعضهم يرى أن العودة إلى الدين الإسلامي هي عودة لسلطان قريش ويجب التخلص من هذا السلطان، وكان هذا بدافع تعصبهم لقبائلهم كما هو عند الحطيئة في مثل قوله[8]:

أطعنا رسول الله إذ كان صادقاً ... فيا عجباً ما بال دين أبي بكر

ليورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

وحدثت فتنة مقتل عثمان بن عفان، ونشبت الحرب بين علي رضي الله عنه وخصومه عائشة وطلحة والزبير وحدثت موقعة الجمل، وظهرت العصبية القبلية بين اليمانية وربيعة بسبب التنافس على قيادة الجيوش، وحدث هذا أيضاً في وقعة صفين بين علي ومعاوية، وفي كل ذلك شارك الشعراء وشرعوا ألسنتهم كل يظهر حسن بلاء قومه وحسن قيادتهم للجيوش، ويصاحب ذلك الطعن والتجريح وتقليل قيمة الطرف الآخر.

وفي عصر بني أمية تزداد نار العصبية القبلية استعاراً بين القبائل العربية في كل من الجزيرة والشام والبصرة والكوفة وخراسان، وربما كان السبب في اشتعال نار العصبية في هذه الفترة، وخاصة في خراسان، المنافسة على قيادة

(8) ديوان الحطيئة ـ شرح أبي سعيد السكري ـ دار صادر ـ بيروت ـ 1981 ص143.

الجيوش وولاية الثغور المفتوحة، فقد كان الوالي يولي عماله وقواده من قبيلته أو أحلافها.

وفي كل ذلك يتجرد الشاعر للدفاع عن قبيلته ويتحدث عن حسن بلائها في الحروب، ويعدد مثالب القبيلة الخصم وأحلافها ويقلل من شأنها، وبالمقابل يرد شعراء الخصم، وبذلك يحتدم الهجاء القبلي بين شعراء الجانبين بسبب تلك العصبيات التي عادت للظهور بعد الإسلام، والتي ساعدت الفتن التي حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ في ظهورها بعد محاربة الإسلام لها واختفائها فترة من الزمن، وهناك أسباب شخصية ساعدت على احتدام الهجاء القبلي إلى جانب تلك العصبيات القبلية كما سنرى عند زياد الأعجم.

والهجاء القبلي عند زياد الأعجم دفاع عن القبيلة التي ينتمي إليها، ولكن لم يكن دفاعاً عن القبيلة نتيجة المعارك التي تخوضها مع غيرها من القبائل، إنما كان السبب في معظمه منازعات فردية بين زياد وشاعر من قبيلة أخرى، فكان يتعرض كل منهما إلى قبيلة الآخر بالهجاء ويجردها من جميع الصفات الحميدة ويصمها بأقبح النعوت، فتحتدم معارك هجائية بينهما، فقد احتدم الهجاء مثلاً بين شاعرنا وبين قتادة بن مغرب اليشكري، فأخذ كل منهما يهجو قبيلة الآخر ويعدد مثالبها، ويرميها بأقبح النعوت، وبالغ زياد في هجاء قتادة وعشيرته يشكر، ونعتهم بعدم الوفاء واللؤم والحقارة وطعن في نسبهم فقال[9]:

لـو أن بـكـراً بـراه الله راحـلـة لكان يشكر منها موضع الذنب

لـيـسوا إلـيـه ولـكـن يـعـلـقون به كـما تـعلّق راقي النّخلِ بالكرب

فهو يحقر من شأنهم حين يضعهم موضع الذنب من البعير، ويشكك في نسبتهم لبكر بن وائل وهم مع هذا يعلقون به كما يتعلق راقي النخل بالكرب، والطعن في النسب له أثر كبير في نفوس المهجوين فهو من أوجع ما ترمى به القبيلة، وأشد وقعاً في نفوس أفرادها، فهي تعتز بنسبها وتحرص على التمسك به وتكره الانتماء إلى غير أصلها، وهذا ما ورثه العرب في هذا العصر وغيره من

(9) طبقات الشعراء ـ ص195.

العصور من أسلافهم في عصر ما قبل الإسلام، فلا بد أن تعتز القبيلة بنسبها وتنتسب إلى أصلها، لأنها إن فقدت هذا النسب أو غمز فيه ضعفت شوكتها وهان أمرها، وخاصة أن الولاة في ذلك العصر عصر بني أمية كانوا يولون عمالهم وقوادهم من قبائلهم وأحلافها، وهذا يجعل كلاً من الفرد والقبيلة يتمسك بنسبه ويتعصب إليه ويكره أن يغمز في هذا النسب، هذا بالإضافة إلى الشعور القومي الذي يؤلف بين العرب نتيجة احتكاكهم بالأجناس الأخرى بعد الفتح الإسلامي ومخالطتهم إياهم، وإحساسهم بأنهم من أمة لها خصائصها ومقوماتها الحضارية والفكرية المميزة، فصار من العار أن تنعت القبيلة أو الفرد بالعجمة، وأنها ليست من أصل عربي كما نرى في قوله يعير الأزد بالعجمة وأنهم ليسوا عرباً وإنما استعربوا حين يقول[10]:

هل تسمع الأزد ما يقال لها ... في ساحة الدار أم بها صمم؟

اختتن القوم بعدما هرموا ... واستعربوا ضلة وهم عجم

لذلك كله يتعصب العربي إلى جنسه العربي وهذا لا يمنع من تعصبه للقبيلة واعتزازه بها والانتساب إليها ويكره أن يطعن أويغمز في هذا النسب أو ينفى منه.

ونراه مرة أخرى ينعت اليشكريين باللؤم وأنهم دائماً على عدم الطهر، حتى إن الرجل إذا مسّ ثوبه ثوب أحد اليشكريين وجبت عليه الطهارة فيقول[11].

إذا يشكري مسّ ثوبَك ثوبُه ... فلا تذكرَنّ الله حتى تطهرا

فلو أن من لؤم تموت قبيلة ... إذاً لأمات اللؤمُ لا شك يشكرا

ومن هذين البيتين نلمس أثر الدين الإسلامي، حيث استخدم الشاعر معاني وألفاظاً جديدة أتى بها الدين الحنيف.

ولعل أشد ما يقع في نفس القبيلة المهجوة ويؤلمها ألماً شديداً أن تنعت

---

(10) الأغاني ـ جـ14 ـ ص288.

(11) الأغاني ـ جـ13 ـ ص103.

بالذلة والعجز والهوان، وقهر القبائل لها، فزياد ينعت يشكر بالغدر وأنه من طباعهم، إلا أنهم لا يستطيعون الغدر ويعجزون عنه لذلهم وقهر الناس لهم حين يقول[12]:

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

ولجّ زياد في هجاء يشكر حتى دعت شاعرها سويد بن أبي كاهل للرد على زياد، فأبى عليهم مما جعل زياداً يهجوه ويطعن في نسبه أيضاً[13] ونراه يصف أهله باللؤم حين يقول[14]:

ونُبِّئْتُهُم يستنصرون بكاهل واللؤم فيهم كاهل وسنام

والطعن بصفة اللؤم كان وليد البيئة الاجتماعية في العصر الأموي، فلفظة اللؤم أخذت دلالة واسعة في ذلك العصر بالإضافة إلى مدلولها في اللغة الذي يعني دناءة الأصل وشح النفس، فهي في عصر بني أمية تجمع إلى جانب تلك الدلالة الجشع ودناءة الخلق والغدر والخبث وذلة النفس، وهوانها والبخل وغيرها من الصفات الرذيلة، وربما هذا يرجع إلى التنافس بين القبائل العربية في سبيل الحصول على أكبر قدر من الغنائم المادية، فلا يتورع الفرد والقبيلة عن سلوك أي سبيل لتحقيق هذه الغاية، وبالتالي صارت هذه الصفة موضعاً للذم والتحقير، فهي تجمع كل الصفات الرذيلة، وهذا له أشد الأثر في نفس المهجو، وبالتالي نرى شاعرنا يلح عليها كثيراً في معظم أهاجيه.

وهجاء زياد لبني يشكر جعل أبا جلدة اليشكري يطلب من زياد أن يكفّ عن هجاء يشكر ويحذره من هجائه فيقول له[15]:

لا تهجُ يشكر يا زياد ولا تكن غرضا وأنت عن الأذى في معزل

واعلم بأنهم إذا ما حصّلوا خير وأكرم من أبيك الأعزل

---

(12) الشعر والشعراء ـ جـ1 ـ ص343.

(13) الأغاني ـ جـ13 ـ ص103.

(14) نقد الشعر ـ لقدامة بن جعفر «أبو الفرج قدامة بن جعفر» ـ تحق. د. محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ص162.

(15) الأغاني ـ جـ11 ـ ص321.

لولا زعيم بني المعلّى لم نبتْ حتى نصبّحكم بجيش جحفل

ومن هذا أيضاً الأهاجي التي وقعت بين زياد الأعجم مولى عبد القيس وشاعرها وبين المغيرة بن حبناء التميمي، فيذكر أبو الفرج في أغانيه أن السبب في هذه الأهاجي هو تقديم المهلّب بن أبي صفرة زياداً على المغيرة وغيره من الشعراء الذين يفدون على المهلّب، وما لبث الهجاء أن لجّ بينهما، فهجا زياد المغيرة وآل حبناء وبني تميم وعدّد مخازيهم، وأجابه المغيرة بهجاء عبد القيس وذكر مثالبها، فانظر إلى زياد وهو يهجو آل حبناء ويصفهم باللؤم الذي يأتي مع وليدهم ويلازمه حتى مماته، وأنهم لا مجد لهم ولا مآثر يذكرونها حين يقول[16]:

أرى كل قوم ينسلُ اللؤم عندهم ولؤم بني حبناء ليس بناسل
يشبّ مع المولود مثل شبابه ويلقاه مولوداً بأيدي القوابل
ويرضعه من ثدي أم لئيمة ويُخلق من ماء امرىء غير طائل
تعالوا فعدوا في الزمان الذي مضى وكل أناس مجدهم بالأوائل

فيرد عليه المغيرة ويعيّره بعجمته ويطعن في نسبه وينعته باللؤم فيقول فيه[17]:

أزياد إنك والذي أنا عبده ما دون آدم من أب لك يُعلم
فالْحَقْ بأرضك يا زياد ولا ترُم ما لا تطيق وأنت علج أعجم
أظننت لؤمك يا زياد يسدّه قوس سترت بها قفاك وأسهم
علج تعصّب ثم راق بقوسه والعلج تعرفه إذا يتعمّم

وتلجّ المناقضات بينهما وتمتد الأهاجي، فنرى زياداً لا يتوقف عن هجاء آل حبناء ونعتهم باللؤم والطعن في نسبهم، بل يتعداهم إلى بني تميم الذين ينحدر منهم آل حبناء، فيصفهم أيضاً باللؤم، فها هو يردّ على

(16) الأغاني ـ جـ13 ـ ص90.
(17) الأغاني ـ جـ13 ـ ص92.

المغيرة بن حبناء عندما قال له في مجلس المهلب[18]:

أقول له وأنكر بعض شأني ألم تعرف رقاب بني تميم

فيجيبه زياد بقوله:

بلى فعرفتهن مقصرات جباه مذلّة وسبال لؤم

وهذه الأهاجي لسهولتها كانت تسير بين الناس، فكل منهما يعتمد في هجائه على تجريد قبيلة الآخر من الفضائل الحميدة، ويرميها بأقبح النعوت، والتجريد من حميد الصفات والنعت بكل نقيصة والوصف بشتى أنواع المثالب، من جبن وذلة ووضاعة النسب، وقلة العدد، وخفة الأحلام، مما له وقعه البليغ في نفسية المهجو، ويعد من الطعنات الموجعة التي تؤلم النفوس أشد إيلام، وهذا ما جعل قبيلة عبد القيس تسترضي المغيرة وترجوه أن يكف عن هجائها.

وبسبب خلاف وقع بين قبيلة عبد القيس وقبيلة الأزد بخراسان أيام المهلّب بن أبي صُفرة، احتدم الهجاء بين زياد الأعجم شاعر عبد القيس وكعب بن معدان الأشقريّ ثم الأزدي، وكان كعب هو الذي ابتدأ هذا الهجاء فقال في عبد القيس وهم أخواله[19]:

إني وإن كنت فرع الأزد قد علموا أخزى إذا قيل عبد القيس أخوالي

فهم أبو مالك بالمجد شرّفني ودنّس العبد عبد القيس سربالي

فغضب زياد لذلك وردّ على هجاء كعب، وتعرّض للأشاقر فتجاهل نسبهم، وعيّرهم بقلّة العدد ـ وقلّة العدد من الخصال التي تعرّض القبيلة للذّم والتحقير ـ فها هو زياد يجعلهم من القلة بحيث تغرقهم بولة الثّعلب، وليس هناك أشدّ من هذا التحقير، ويزيد من تحقيرهم بأنّه لا أصل لهم حتى إنهم لو رهنوا بنعليْ عبدٍ لغَلقَ الرّهن فيقول[20]:

نُبّئتُ أشقر تهجونا فقلتُ لهم ما كنتُ أحسبهم كانوا ولا خلقوا

---

(18) الأغاني ـ جـ13 ـ ص94 وما بعدها.

(19) الأغاني ـ جـ14 ـ ص288.

(20) الأغاني ـ جـ14 ـ ص288.

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قوم من الحسب الأدنى بمنزلة كالفقع بالقاع لا أصل ولا ورق

إن الأشاقر قد أضحوا بمنزلة لو يُرهنون بنعلي عبدنا غلقوا[21]

فهو يتجاهل هذه القبيلة ويستهين بأمرها، فنراه يستخدم كلمة «نُبِئتُ» وهي توحي بأنه لم يستمع إلى ذلك الهجاء الذي وجه إليهم من قبل الأشاقر، ولا ما هي المثالب التي وظفتها القبيلة في هجاء عبد القيس، وإنما نقل إليه خبر الهجاء، واستخدامه لهذه اللفظة يوحي بتجاهله لقبيلة الأشاقر ويحقر من شأنها، لذلك نراه يصرح بتجاهله وتحقيره لهم في قوله: «ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا»، ونراه يستخدم الكناية للتعبير عن قلة العدد التي تعد من المثالب التي ترمى بها القبيلة في قوله: «لا يكثرون وإن طالت حياتهم»، ويؤكد هذه القلة وتحقيره لهذه القبيلة وتعبيره عن هوانها، وذلّها حينما يجعلهم يغرقون في بولة الثعلب، ولكن لماذا بولة الثعلب دون غيره من الحيوانات؟ ربما في هذا إشارة إلى المثل القائل «أذلُّ ممَّن بالت عليه الثعالب»، وقيل في مورد هذا المثل أن رجلاً من العرب فيما قبل الإسلام كان يعبد صنماً فنظر يوماً إلى ثعلب جاء حتى بال عليه فقال[22]:

أربٌّ يبول الثُّعلُبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

والتشبيه في البيت الثالث يشكك في نسبهم وينكر أن يكون لهم أصل كريم حين يشبههم بالفقع الذي لا أصل له بل يتعلق بما يجاوره، وهو لا يشبههم بأي فقع أو بالطحلب على سطح الماء، وإنما بالفقع في القاع وهذا يتناسب مع قوله في الشطر الأول «قوم من الحسب الأدنى بمنزلة» حتى يكونوا في أدنى منزلة من الحسب بسبب فقدهم الأصل، ويزيد من هذا التحقير حين يجعلهم يغلقون رهن نعلي عبد من عبيد عبد القيس.

---

(21) غلق الرهن: ـ عبارة تقولها العرب عند عجز الراهن عن سداد قيمة الرهن في الموعد الذي حدده المرهون عنده.

(22) مجمع الأمثال ـ للميداني «أحمد بن محمد النيسابوري» ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ جـ2 ـ ص169.

ونلحظه في هجائه يعتمد على تجريدهم من الصّفات التي تفخر بها القبيلة، لأن لهذا التجريد أثراً في نفوس المهجوين، فانظر إليه أيضاً وهو يهجو الأشاقر ويرميهم بالكذب والبخل حيث يقول[23]:

قُبَيِّلة خيرها شرّها وأصدقها الكاذب الآثم

وضيفهم وسط أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائم

فهو يجردهم من صفتي الكرم والصدق، ويؤكد قلة عددها واحتقارها بتصغيره لها حين أشار إليها بقوله «قُبيّلة»، ونرى أثر الإسلام في توليده للمعاني واستخدامه لألفاظ جاء بها القرآن الكريم، عندما لم يصرّح ببخلهم وعبّر عنه تعبيراً غير مباشر حينما جعل ضيفهم يصوم مُكرهاً لبخلهم.

وهو يلح على وصمهم بالبخل حين جعلهم يتواصون بذبح الكلب إذا جر صوته طارقاً حين يقول[24]:

ألا قل لكعب الأشقري بلؤمكم علمنا بأن اللؤم في الأرض أشقر

بيوتك أشباه البيوت وأهلها خنازير أنباط تعاف وتقذر

تواصوا بذبح الكلب إنْ جرَّ صوتُه لهم طارقاً والريح نكباء صرصر

فما ترك الكلب النباح مخافةً على زادهم لكن على النفس يحذر

فهو ينعتهم باللؤم ويجعله فرداً من أفراد القبيلة، ونراه يصور قبح مهجويه وسوء منظرهم وهيئتهم حين شبههم بالخنازير، فهي تعاف لمنظرها وقذارتها، ولهذا أثره في نفوس المهجوين، فالصفات الحسية والعيوب في الهيئة لها شأنها في المجتمع الذي نال شيئاً من التحضر وتغير في طباع وأذواق الناس، فصاروا يلتفتون إلى عيوب الهيئة التي من شأنها أن تؤذي الأذواق المرهفة والاستمتاع بالجمال.

إلى جانب هذا نرى الشاعر يعمد إلى أسلوب السخرية والإضحاك

---

(23) الشعر والشعراء ـ جـ1 ـ ص345.

(24) الحماسة البصرية ـ للبصري «علي بن الفرج بن الحسين» ـ ت659هـ ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ جـ2 ـ ص252.

باستخدام هذه الألفاظ والأساليب والصور المثيرة للضحك، التي تصور مهجوَّه في صورة ساخرة تحمل على الضحك، مثل تصويره للأشاقر بالخنازير، وذبحهم للكلب إن جر صوته طارقاً وهو في أشد الحاجة للقرى، فالكلب ترك النباح حرصاً على نفسه، وشاعرنا في اتباعه لأسلوب السخرية والإضحاك يساير المجتمع الأموي الذي أخذ بشيء من الترف والحضارة ورقة الطباع ولينها بسبب هذا التحضر وما وجد في حياتهم من فراغ، ولذلك نرى الشاعر يعمل جهده في ابتكار الصورة الهجائية الساخرة التي تثير الضحك لدى سامعيه فيحظى بإعجابهم، وربما هذا يدل على احتراف زياد فنَّ الهجاء.

ونراه يهجو الأزد ويعيِّرهم بمزاولتهم صيد الأسماك فيقول فيهم[25]:

أتتك الأزد مصفراً لحاها ... تساقط من مناخرها الجواف

ولجّ الهجاء بين زياد الأعجم وكعب الأشقري، ما اضطر كعباً إلى أن يشكو زياداً إلى المهلّب راجياً أن ينتصر له ولقومه، ولكن المهلّب يقدر مكانة زياد الشعرية ومدائح زياد فيه، فلم يغضب لهجائه الأزد وأصلح ما بين الشاعرين.

وها هو يهجو بني جرم الذين يرجع نسبهم إلى قضاعة، فهو لم يهجهم بسبب نزاع بينه وبين شاعر منهم، بل ربما بسبب العصبيّة، التي كانت قائمة آنذاك، فهو من قبيلة عدنانية وقضاعة قبيلة قحطانيّة، فقد هجاهم عندما قابل أبا قلابة الجرمي، أحد شيوخ جرم فقال فيهم[26]:

قمْ صاغراً يا كهل جرم وإنّما ... يقال لكهل الصدق قمْ غير صاغر

فإنك شيخ ميت ومورّث ... قضاعة ميراث البسوس وقاشر

قضى الله خلق الناس ثم خلقتم ... بقية خلق الله آخر آخر

فلم تسمعوا إلا بما كان قبلكم ... ولم تُذركوا إلا بدق الحوافر

فلو ردّ أهل الحق من مات منكم ... إلى حقه لم تدفنوا في المقابر

---

(25) الأغاني ـ جـ15 ـ ص394.

(26) الأغاني ـ جـ15 ـ ص394.

فهو كعادته يعتمد على التجريد في هجائه، فيحتقر شيخ جرم ويقلل من شأنه، وينعته بالكذب في اتباعه أسلوب المقابلة الذي جاء به في البيت الأول حين قابل بين الصفات الرديئة التي يتصف بها شيخ جرم والصفات الحميدة التي يتصف بها غيره، وينعته بالشّؤم الذي سيورثه قضاعة مثل الشؤم الذي جرته البسوس على قبيلتي بكر وتغلب من جراء الحرب التي اندلعت بين القبيلتين بعد مقتل كليب وائل بسبب ناقتها العجفاء، وهو بذلك يشير إلى المثل القائل: «أشأم من البسوس»[27]، وكذلك يشير إلى جمل بني عوافة بن سعد بن زيد مناة الذي يضرب بشؤمه المثل فيقال: «أشأم من قاشر»[28] وفي هذا دلالة على ثقافته التاريخية المستمدة من أخبار العرب وأنسابهم وأيامهم فيما قبل الإسلام، ويضع قضاعة في أهون منزلة وأحقرها، بحيث يؤخر الله خلقهم حتى ينتهي من خلق القبائل جميعها، وأنهم من القلة بحيث لا يُدْركون إلاّ بالأثر.

ها هو يمعن في تحقيرهم عندما يتجاهل وجود القبيلة بأكملها تهكماً واستخفافاً بها وسخرية منها، وأنه لم يسمع باسمها، وهذا من أشد أنواع التحقير، بحيث يتجاهل إنسان وجود قبيلة بأكملها، فيقول زياد في بني جرم[29]:

فمن أنتم إنّا نسينا من أنتم ... وريحكم من أي ريح الأعاصر

وأنتم أولي جئتم مع البقل والدّبا ... فطار وهذا شخصكم غير طائر

فهو يتسخدم أسلوب التهكم والسخرية وكذلك أسلوب الإنكار والتعجب في الاستفهام الذي جاء به في البيت الثاني حين جعلهم يأتون مع صغار الجراد، ولهذا أثره النفسي لدى المهجوين.

---

(27) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ـ لأبي عبيد البكري ـ تحق د. إحسان عباس وآخرين ـ دار الأمانة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1971 ـ ص 504.

(28) لسان العرب ـ لابن منظور «محمد بن مكرم» ـ «630 ـ 711هـ» ـ تصنيف يوسف الخياط ـ دار لسان العرب ـ بيروت ـ مادة «قشر».

(29) شرح ديوان الحماسة ـ للمرزوقي «أحمد بن محمد. ت. 421 هـ «تحق. أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ط2 ـ 1968 ق3 ص1539.

ونراه أيضاً يهجو قبيلة تيم اللات ويصفها بأنها قبيلة لا نجم لها، وليس لديهم مأثرة يذكرونها، وإنما هي قبيلة لا تعدد إلا المثالب والمخازي، فربة النحيين منهم وهي التي يضرب بها المثل في الخزي فيقال: «أخزى من ذات النحيين»[30] حين يقول[31]:

لكل قبيلة قمر ونجم وتيم اللاّت ليس لها نجوم

أناس ربة النحيين منهم فعدوها إذا عد القديم

وللعصبية القبلية التي كانت قائمة آنذاك، والتي أذكى نارها بنو أمية، أثر كبير في الهجاء القبلي عند زياد الأعجم، فهي السبب الخفي في إثارتها، فالأهاجي والمناقضات التي كانت تقوم بينه وبين شعراء تلك القبائل صدى لتلك العصبية، سواء العصبية بين القحطانيّة والعدنانيّة أو بين الربعيّة والمضريّة، وقد أشار المغيرة بن حبناء إلى اعتماد ربيعة على زياد في الدفاع عنها أمام الشعراء في إحدى أهاجيه لزياد، عندما طلبت ربيعة من زياد الدفاع عنها، فيستهزىء المغيرة بذلك، وكان حرياً بربيعة أن تبحث عن ماجد كريم يدافع عنها، ثم يتعرض لعبد القيس وينعتها بالذلة والمهانة، ويقول لربيعة إن زياداً لن ينجيها من هجائه فيقول[32]:

لعمرك ما نجّى ابن زروان إذ عوى ربيعة مني يوم ذلك سالما

أظنَّ الخبيث ابن الخبيثين أنني أُسلّمُ عرضي أو أهاب المقاوما؟

لعَمْرك لا تُهدى ربيعة للحجا إذا جعلوا يستنصرون الأعاجما

والهجاء القبلي عند زياد أو غيره من شعراء العصر الأموي يصور لنا علاقة القبائل بعضها ببعض، تلك العلاقة التي تقوم في أغلبها على التحالف بين القبائل والتعصب لها، فهذه العلاقة إما أن تكون علاقة ود ووئام أو صراع دامٍ بين القبائل بسبب تلك الأحلاف، فلا بد للقبيلة أن تتعصب للحلف الذي تنتمي

---

(30) تمثال الأمثال لأبي المحاسن محمد بن علي العبدري ـ ت837هـ ـ تحق أسعد ذبيان ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ جـ1 ـ ص149، واللسان مادة «نحا» «أشغل من ذات النحيين».

(31) الحماسة البصرية ـ جـ2 ـ ص 283.

(32) الأغاني ـ جـ13 ـ ص95.

إليه، والذي ترى فيه مصالحها وتدافع عنه، وهذا ما فرضته الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة، وإلى جانب هذا قد يحدث خلاف بين أفراد الحلف الواحد فيحدث صراع بينهم بسبب العصبية القبلية، وفي هذا وذاك يتجرد الشاعر بدافع الولاء والتعصب سواء للحلف أو للقبيلة للدفاع عن هذا الولاء.

لذلك نستشعر صدق العاطفة في الهجاء القبلي عند زياد، لأنه كان نابعاً من إحساسه بواجبه نحو القبيلة والتعصب لها والذود عنها، ولهجائه القبلي أثر كبير في القبيلة المهجوَّة حين يجردها من كل الصفات التي تحرص عليها القبيلة، وهو ما دفع بعض القبائل المهجوَّة أن تدعو شعراءها للدفاع عنها أمام زياد، وبعضها الآخر يسترضي زياداً حتى يكف عن هجائها.

والملاحظ أيضاً على هذا النوع من الهجاء أنه لم يعد يقتصر على تجريد القبيلة المهجوَّة من صفات الكرم والشجاعة والنجدة، وتلك الصفات التي تحرص القبيلة على أن يتحلى بها أفرادها، ووصمها باللؤم والبخل والجبن وقلة العدد فحسب، وإنما تجريدها أيضاً من الصفات التي جاء بها الإسلام، ولهذا أثر كبير في القبيلة فهو يقلل من شأنها حين يجردها من تلك الصفات التي دعا إليها الدين الإسلامي، فرأينا كيف وصف زياد بني يشكر بعدم الطهر، وأنّ مجرد لمسهم يوجب الطهارة، وكيف جعل ضيف الأشاقر يصوم مكرهاً، وأن الله يؤخر خلق بني جرم حتى ينتهي من خلق القبائل جميعها، وهذا يدلنا على أثر الدّين الإسلامي في المجتمع القبلي.

ونرى أثر الإسلام بوضوح في الهجاء الفردي عند زياد، فالهجاء عنده لا يقوم على نقض تلك الصفات الحميدة التي يحرص عليها كل فرد من شجاعة وإباء للضيم وكرم... فحسب، لكن معاني وألفاظ الهجاء عنده تأثرت بالدّين الإسلامي الذي أوجد قيماً وفضائل لم تكن معروفة من قبل، فضائل مستمدة من العقيدة الدينية، وصار التمسك بالفضائل الدينية الجديدة من المحامد التي يجب أن يتحلى بها الفرد ومدعاة للتفاخر والتباهي، والإخلال بها من المطاعن التي تنقص من قدر ومكانة الفرد والقبيلة، ووصم الفرد بالإخلال بهذه الصفات أو التخلي عنها أو التقصير فيها له أثر كبير في نفسيته، لذلك نراه يصف المهجوَّ

بعدم التقوى وبالمروق والخروج عن الدّين والفسق وشرب الخمر، وأن يوصف المهجوّ بالخروج عن الدين والفسق له أثر كبير في نفسيته، فيجعله بعيداً عن الحظيرة الإسلامية التي يحرص على الانضام إليها، وهو بذلك يحقره. ويقلل من شأنه حين ينعته بتلك الصفات التي حاربها الإسلام. فانظر إليه وهو يهجو يزيد بن حبناء عندما نهاه عن هجاء بني يشكر فنعته بالخروج عن الدّين حين يقول[33]:

يحذرني الموت ابن حبناء والفتى ... إلى الموت يغدو جاهداً ويروح
وكل امرىء لا بدّ للموت صائر ... وإن عاش دهراً في البلاد يسيح
فقل ليزيد يابن حبناء لا تعظ ... أخاك وعِظْ نفساً فأنت جنوح
تركت التقى والدين دين محمد ... لأهل التقى والمسلمين يلوح
وتابعت مرّاق العراقين سادراً ... وأنت غليظ القصربين صحيح[34]

إلى جانب هذه المعاني نراه ينعت ممدوحيه بالبخل إذا لم يجزلوا له العطايا، فقد امتدح عباد بن الحصين وكان على شُرطة البصرة أيام الحارث بن عبد اللّه بن ربيعة المعروف «بالقباع» وطلب منه زياد حاجة فلم يقضها له، فهجاه ونعته بالبخل وندم على مدحه إياه وطلبه له فقال»[35]:

سألت أبا جهضم حاجة ... وكنت أراه قريباً يسيراً
فلو أنني خفت الخلا ... ف والمنع لي لم أسله نقيراً
وكيف الرجاء لما عنده ... وقد خالط البخل منه الضميرا
أقلني أبا جهضم حاجتي ... فإني امرؤ كان ظني غروراً

وربما كان الهجاء وسيله للكسب عند زياد في بعض الأحيان، فنراه في مثل الهجاء الذي تعرض به لأحد بني المهلّب، وطلب منه أن يكون صادقاً فيقرن القول بالفعل لأن الصدق فضيلة يجب أن يتحلى بها، فلا خير في

(33) الأغاني ـ جـ15 ـ ص390.
(34) القصريان: مثنى القصري؛ وهي آخر ضلع في الجنب أسفل الأضلاع.
(35) الأغاني ـ جـ15 ـ ص390.

الكذب وإن كان صاحبه جواداً كريماً، ولكن الفضل والخير فيمن يصدق في أقواله وأفعاله وإن كان بخيلاً، ثم يصرح له بطلبه فيلح عليه في تلبية العطاء فيقول[36]:

أنت الفتى كل الفتى ... لو كنت تفعل ما تقول
لا خير في كذب الجوا ... د وحبّذا صدق البخيل
يابن الممهلّب حاجتي ... عجّل فقد حضر الرحيل

وها هو يهجو المغيرة بن حبناء التميمي وينعته بالحمق واللؤم ويتوعده، ويفتخر أنه إذا هجا قوماً أبادهم بهجائه، إلا أن يتركوا سبه وهجاءه، وأن المغيرة لن يستطيع الإفلات من هجائه فيقول[37]:

ألم تر أنني وترت قوسي ... لأبقع من كلاب بني تميم
عوى فرميته بسهام موت ... كذاك يرد ذو الحمق اللئيم
وكنت إذا غمزت قناة قوم ... كسرت كعوبها أو تستقيم
هم الحشو القليل لكل حي ... وهم تبع كزائدة الظليم
فلست بسابقي هرباً ولما ... تمر على نواجذك القدوم
فحاول كيف تنجو من وقاعي ... فإنك بعد ثالثة رميم
سراتكم الكلاب البقع فيكم ... للؤمكم وليس لكم كريم
فقد قدمت عبودتكم ودمتم ... على الفحشاء والطبع اللئيم

وهو لا يكتفي بهجاء المغيرة فقط وإنما يهجو قبيلته أيضاً فينعتها بالعجز والهوان وأنها لا قيمة لها، ويرميها باللؤم والحقارة ودناءة الأصل فليس فيهم كريم، وهم دائماً على الفحشاء وسوء الطبع، وهذه التشبيهات والصور التي يستخدمها مستمدة من واقع البيئة، وهذه تدل على شدة احتقاره للمغيرة وقبيلته،

---

(36) الشعر والشعراء ـ جـ1 ـ ص345.

(37) شرح أبيات مغني اللبيب ـ للبغدادي «عبد القادر بن عمر» ـ «1030 ـ 1093هـ» تحق. عبد العزيز بن رباح وآخرين ـ مكتبة البيان ـ دمشق ـ مطبعة زيد بن ثابت ـ دمشق ـ ط1 ـ 1974 ـ جـ2 ـ ص17.

ولهذا أشد الأثر في نفسية المهجوين، إلى جانب استخدامه أسلوب السخرية والتهكم، ومن خلال هذه الأبيات نلحظ أن شعر الهجاء الفردي عند زياد يختلط بالهجاء القبلي ويسير معه جنباً إلى جنب.

ونراه يعترض الفرزدق عندما هَمّ بهجاء عبد القيس، وأشار زياد إلى الأهاجي الكثيرة التي تعرض لها الفرزدق، وأن الهاجين لم يتركوا شيئاً يهجوه به، وعلى الرغم من ذلك فإنه سيهجوه إذا ما تعرّض لهجاء عبد القيس، ثم يشير إلى أن قومه كرام يتمتعون بصفات وأخلاق حميدة لا تؤثر فيها أهاجي الفرزدق أو غيره فيقول[38]:

ما ترك الهاجون لي إن هجوته ... مصحاً أراه في أديم الفرزدق

ولا تركوا عظماً يُرى تحت لحمه ... لكاسره أبقوه للمتعرق

سأكسر ما أبقوه لي من عظامه ... وأنكت مخ الساق منه وأنتقي

وإنا وما تهدى لنا إن هجوتنا ... لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

وعندما بعث إليه زياد بهذه الأبيات توقف الفرزدق ولم يتجرأ على هجاء عبد القيس.

وعلى الرغم من مقابلة زياد للفرزدق وتعرضه له إلا أن زياداً امتنع عن الدخول في المناقضات التي كانت تقوم بين الفرزدق وجرير وأمثالهما من شعراء النقائض، مثلما فعل الصلتان العبدي وخليد عينين ابنا قبيلته، فالأول أراد أن يحكم بين جرير والفرزدق في قصيدة مشهورة وبسببها تعرّض لهجاء جرير[39]، والثاني تعرض لجرير أيضاً[40]، وربما السبب في امتناع زياد الدخول في تلك المناقضات هو عدم رغبته الدخول في خصومات ومنازعات مع هذين الشّاعرين، فقد طلب من الفرزدق عدم هجاء عبد القيس وأرسل له الأبيات

---

(38) الشعر والشعراء ـ جـ1 ص344.

(39) الأمالي ـ للقالي «أبو علي إسماعيل بن القاسم ـ 288 ـ 356هـ» ـ لجنة إحياء التراث ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ 1980 جـ 2 ص141 وما بعدها، وطبقات الشعراء ـ ص 133 وما بعدها.

(40) طبقات الشعراء ـ ص134.

السابقة، وعندها امتنع الفرزدق عن هجاء عبد القيس، ولم أجد في شعره غير هذه الأبيات التي وجهها للفرزدق، وامتناع الفرزدق الرد على زياد حين قال له: «لا أهجو قوماً أنت منهم أبداً»[41] وإلى جانب ذلك بعده عن موطن تلك النقائض، وانشغاله بهجاء القبائل التي تعرّض له شعراؤها في خراسان.

أما عن سبب تراجع الفرزدق عن هجاء عبد القيس، فالفرزدق لم يكن مطعوناً في نسبه بحيث يخشى هجاء زياد، فهو من تميم ومن أشرف بطونها وبيوتها، إلا أن تميماً تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزد وربيعة ونتيجة لهذا الحلف اصطدمت مع الأزد وربيعة، التي منها زياد، وهذا دافع يدفع زياداً لأن يهجو الفرزدق وقبيلته خاصة وأن زياداً شديد التعصب لقبيلته، فربما هذا سبب من الأسباب التي دعت الفرزدق يتراجع عن هجاء عبد القيس، ولكنه ليس سبباً قوياً في تراجع الفرزدق، وربما يشكل مع أسباب أخرى دافعاً يمنعه من هجاء عبد القيس، فمن الأسباب أيضاً أن أخت الفرزدق وتدعى «جعثن» رميت بالفحشاء، وقد أشار جرير إلى ذلك وعير الفرزدق به في مناقضاته له[42]، وبالتالي هو لا يريد أن يفتح باباً آخر للطعن في شرف أخته، وفوق هذا عرف الفرزدق بالفسق وشرب الخمر التي حرمها الإسلام، وهذا مطعن آخر لنيل زياد من الفرزدق، وربما هناك مطاعن أخرى يعلمها زياد ولها أثر كبير في نفسية الفرزدق وتنال من شرفه ومنزلته لا يعلمها الآخرون، فهناك إشارة إلى وجود تلك المطاعن في قول زياد[43]:

سأكسر ما أبقوه لي من عظامه وأنكت مخ الساق منه وأنتقي

والسبب الأقوى في نظري الذي جعل الفرزدق يتراجع عن هجاء عبد القيس إلى جانب تلك الأسباب هو إحساسه بشاعرية زياد وتفوقه في الهجاء، وإلا لماذا تراجع عن هجاء عبد القيس بعد أن وصلته أبيات زياد. ورد

---

(41) الأغاني ـ جـ15 ـ ص393.

(42) شرح ديوان جرير ـ محمد إسماعيل الصاوي ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ انظر مثلاً ـ: جـ1 ـ ص30، 85، 129، 151.

(43) الشعر والشعراء ـ جـ1 ص344.

على زياد في رواية أخرى بقوله: «حسبك هلم نتتارك»[44] أي نتهادن، وخاصة أن الأسباب السابقة التي ذكرناها عيَّره بها جرير وغيره من الشعراء، وفي هذا دلالة على شاعرية زياد وتفوقه في هذا الجانب، وربما كان زياد أيضاً يحس بتفوقه في الهجاء الذي يرقى إلى مستوى الفرزدق أو يفوقه، وإلا لما استمهله في هجاء عبد القيس حتى يرسل إليه بتلك الأبيات، ويقدم له نموذجاً من مقدرته الهجائية، فهو يفتخر ببراعته في هذا الجانب حين يقول[45]:

وقافيةٍ حذاء بتُّ أحوكُها ... إذا ما سهيل في السماء تلألأ

وكذلك في قوله[46]:

وكنت إذا غمزت قناة قوم ... كسرت كعوبها أو تستقيم

وكان لهجاء زياد أثر كبير في نفس مهجوّه، لذلك كان الناس يتقون هجاءه ويسعون لاسترضائه، وهذه الأسباب مجتمعة في نظري سبب كاف لتراجع الفرزدق عن هجاء عبد القيس.

ولم يكتفِ زياد بهجاء هؤلاء الذين يمنعونه العطاء، ومن يتعرضون له ولقبيلته بالهجاء، بل هجا كل من لا يوافق هواه في أفعاله وأقواله، فنراه يهجو عراك بن محمد أحد فقهاء مصر الذين وفدوا إلى فارس، ولامه على قدومه إليها، ويرى أنه لم يأتِ إلا ليستجدي وينال العطاء والأموال وينعته بالكذب فقال فيه[47]:

يحدثنا أن القيامة قد أتت ... وجاء عراك يبتغي المال من مصر

فكم بين باب النوب إن كنت صادقاً ... وإيوان كسرى من فلاة ومن قصر

ومن ذلك كله نرى أن شعر الهجاء عند زياد الأعجم يسير في اتجاهين متلازمين يسيران جنباً إلى جنب ويختلط أحدهما بالآخر أحياناً، هجاء فردي

---

(44) الأغاني ـ جـ15 ـ ص392.

(45) الأغاني ـ جـ15 ـ ص393.

(46) شرح أبيات المغني ـ جـ2 ـ ص17.

(47) الأغاني ـ جـ15 ـ ص385.

وهجاء قبلي، وكان للعصبية القبلية القائمة في ذلك الوقت أثرها في الهجاء القبلي عنده، وربما كان هجاؤه القبلي أكثر صدقاً من هجائه الفردي، لأن الهجاء القبلي عنده يصدر عن حرصه على القبيلة والدفاع عنها والتعصب لها، ولا نستشعر هذا الصدق في بعض أهاجيه الفردية لأنها تصدر أحياناً عن أغراض شخصية ليست قوية ترقى إلى قوة التعصب للقبيلة، مثل الهجاء لأجل الكسب، أو هجائه لأحد الفقهاء، بينما نستشعر الصدق في البعض الآخر من هجائه الفردي الذي يصدر بدافع الدفاع عن نفسه ونسبه أمام الشعراء، وشعر الهجاء عنده يأتي في مقطوعات قصيرة ذات ألفاظ سهلة دقيقة المعاني، بعيدة عن الحوشية والصعوبة، لا تحتاج إلى كبير عناء في الوصول إلى معانيها، وتخلو تراكيبه من التعقيد المعنوي، يعتمد فيه على تجريد مهجوّه من جميل الصفات التي يحرص الفرد والقبيلة على التحلي بها، وتحقير مهجوّه وتجاهله والسخرية منه، وإلى جانب ذلك تأثر بمعاني الدين الإسلامي، وولّد معاني الهجاء من تلك المعاني، وتأثر بالقرآن الكريم في الأفكار والصور والألفاظ والتعبير، ورأينا ذلك من خلال الأهاجي التي وجهها لمهجويه، فهو يَصِمُ مهجوّه بالمروق والخروج عن الدين وعدم الطهر، وغيرها من الصفات الرذيلة المنافية لما جاء به الإسلام، وكان الهجاء عنده وسيلة للكسب في بعض الأحيان.